منتدى الحوار

الحريـــة والإبداع

صلاح فضل:

نلتقي اليوم مع أحد أساتذة الجيل وأجيال تالية مشوقين لسماعه، متعطشين لأن يمثلوا أمام هذا العلم الذي أصبح مفخرة للحياة العلمية المصرية ومفخرة لوطنه، وواحدًا من صناع عقوله وبناة تقاليده العلمية والجامعية الرصينة. وقد بـــُهر أساتذة الجامعة بأعمال الدكتور مصطفى سويف منذ طالعهم في الخمسينيات ببحثه الرائد الذي أدخل مفردة الإبداع في السماع المصري والعربي، وجعل من دراسات علم النفس وبحوثه الأصيلة المتمكنة، لا مجرد وسيلة علاجية لتناول الأمراض وحالات الشذوذ، ولكن قوة دافعة لاكتشاف مثالب الخلق وطاقات الإبداع وتنميتها لدى الإنسان. هذا البحث الذي حفر بعمق في وجدان المثقفين المصريين والعرب، منذ درس فيه الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، استهل مدرسة رعاها بثقة وجدارة وأصالة واحترام، مدرسة علم نفس الإبداع التي تكاد لغتنا تنفرد بهذه الكثافة في كتاباتها، وهذه الأصالة في إبداعها، وهذا التنوع في مجالاتها المختلفة، فتح آفاقًا للعلم وللفن وللخبرة وللمعرفة، ثم ما لبث بعد ذلك أن فتح آفاقًا أخرى متصلة بطبيعة هذا المجتمع، وعادات الناس فيه وأمراضهم ومشكلاتهم، وخصص جزءًا كبيرًا من جهده لعلاج أدوائهم المزمنة وعاداتهم السيئة، وتركز هذا الجهد العلمي على أخطر المشكلات التي كانت ولا تزال تهدد العقل المصري خاصة والوعي المصري، ثم العقل العربي والوعي العربي بأكمله، عندما رفع راية حرب الإدمان، وأصبح أكبر خبير دوليّ فيها، كما اعترف له المجتمع العلمي في كل الثقافات وفي جميع الأبحاث. لم يكن يرفع بقيمته العلمية اسمه وحده، بل كان يرفع معه جناح هذا الوطن الذي يعتز بعبقرية أبنائه، ويفسح لأمثاله مكان الصدارة والخلود، بين هؤلاء الطليعة من الرواد، الذين جعلوا للعلم رسالة وللحياة الجامعية قيمة، مهما جاءت بعد ذلك التطورات والتغيرات لتقلل من شأن الأجيال التي تلتهم فيما بعد. أحسب أنه وهو أول من تحدث عن الإبداع وأسسه النفسية، عندما يأتي ليحاضرنا اليوم بحكمته وخبرته عن الحرية والإبداع، يأتي ليفجر هذا النهر الذي سبق له أن سبح فيه منذ مطلع شبابه، ويأتي ليشبع شوقنا وشوق الأجيال الشابة إلى أن نجلس إليه ونتتلمذ عليه ونسمع منه.

لن تفي كل الكلمات بحق الدكتور مصطفى سويف، حسبه أن منتدى الحوار لأول مرة منذ بدأ منذ عدة أعوام، يغص بهذه الوجوه الشابة المتطلعة التي تجدد الثقة في العلم وفي الأدب وفي الحوار وتبعث على الأمل، لتفتح صفحة جديدة وهي تحتضنه في مكتبة الإسكندرية.

مصطفى سويف:

شكرًا جزيلاً للدكتور صلاح فضل على هذه الكلمات، التي تملأني شعورًا بالمسئولية وبثقل الأمانة أكثر مما تملأني بأي شعور آخر. إن الشكر واجب لحضراتكم جميعا على تحملكم مشقة المجيء والاستماع للمشاركة. والشكر أوجب لأصحاب الدعوة، فذلك تشريف لي أن أُدعى لإلقاء الحديث في رحاب هذا الصرح الذي يلفنا جميعًا في عبق التاريخ. والشكر أوجب أضعافًا مضاعفة لمن صاغ هذا العنوان، ثم حملني أمانة الحديث حوله.

السيدات والسادة ... ينطوي مفهوم الحرية على معانٍ متعددة، بالغة التعقد لكثرة ما بينها من تشابكات، ويبدو ذلك واضحًا بمجرد النظر العابر فيما ورد تحت مادة "حَـــرَرَ" في لسان العرب أو فيما هو منشور تحت كلمة freedom في قاموس أكسفورد للمصطلحات السياسية. ومع أن هذه الحقيقة وحدها جديرة بالتأمل، بل الدراسة الجادة المستفيضة، فلن ندخل في هذا الدرب في مقامنا الراهن، بل سنكتفي مؤقتًا بالتعامل مع ما نعتبره المعنى المركزي للمفهوم، وهو المعنى الحدسي الذي نحمله في أذهاننا جميعًا، مع الإفادة من بعض إشعاعاته من حين لآخر.

كذلك التعامل مع ما يستدعيه مفهوم الإبداع من ثراء المعاني والدلالات ليس بالأمر الهين، غير أن ما يجعل تناوله بالنسبة لنا أهون هو ما تراكم حوله من آلاف الدراسات النظرية والعملية التي قام بها أهل الاختصاص، ولا سيما علماء النفس على امتداد الخمسين أو الستين عامًا الماضية، ولا يزال بعضهم عاكفًا عليها، وهو ما أدى إلى وجود قدر كبير من وضوح الرؤية في الميدان.

هذا هو الوضع بالنسبة لطرفي القضية التي أتناولها اليوم في حديثي عن "الحرية والإبداع".

يبدأ المسار بالحديث عن الحرية كشرط للإبداع، وتحت هذا العنوان سأشير إلى نوعين من الحرية: نوع خارجي أو بيئي، ونوع داخلي أو نفسي؛ ولما كانت تجليات الحرية تتعدد بتعدد جوانب الحياة التي تكون فاعلة فيها بالسلب أو بالإيجاب، فسأواصل إلقاء مزيد من الضوء على طبيعة هذه التجليات، ليتجمع لنا في نهاية المطاف تصور كاشف لحقيقة هذه العلاقة بين الحرية والإبداع، ليتحقق لنا من هذا الكشف بدء طريق نحو مزيد من النظر والاختبار.

ستلاحظون حضراتكم أن هذا المسار سوف يتخذ شكلاً مركبـــًا قرب منتصفه، ولكن هذا التركيب لن يجعله مستعصيـــًا على الفهم؛ وحقيقة الأمر أنني سأحاول أن ألقي بعض الضوء على المقدمات التطورية البيولوجية المبكرة للعلاقة بين الحرية في أدنى مستوياتها من ناحية، والنشاط المعرفي للحيوان في مستوى متدن من البدائية. ويمكننا أن نسمي هذا الجزء من المسار مسارًا ارتقائيا. أما لماذا أسلك هذا المسلك فلذلك سببان: أحدهما أن أعرض لحضراتكم لمحة عن المقدمات الأولية لموضوعنا وهي بعد براعم في شجرة الحياة التي ينتمي إليها جنسنا البشري؛ والسبب الآخر أن أذكِّر بأن فرعًا كبيرًا من فروع علم النفس الحديث هو "علم النفس الحيواني" يقدم لنا ثروة من المقدمات المحققة تجريبيًّا تلقى أضواء هامة على مباحث السلوك البشري، ومن بينها مبحث العلاقة بين الحرية وكثير من نشاطاتنا المعرفية ومن بينها النشاط الإبداعي.

أبدأ — أولاً – بتحديد المقصود بمفهوم الإبداع، ليكون لنا من هذا التحديد نقطة مرجعية نعود إليها من حين لآخر، فتكون ركيزة تعيننا على أن نعرف عم نتحدث.

تشير الكثرة الغالبة من المواد الواردة – فيما هو منشور في أدبيات البحوث النفسية حول هذا الموضوع – إلى عدد من زوايا النظر، أجملها فيما يلي:

١- ديناميات الفعل الإبداعي نفسه، أي متابعة انطلاقه لحظة بلحظة.

٢- تشريح الفعل الإبداعي للكشف عما وراءه من قدرات أو استعدادات، وهو ما يسميه علماء النفس بالعوامل الأولية الفاعلة في الإبداع.

٣- الصفات الواسمة الرئيسية للناتج الإبداعي.

٤- بناء شخصية المبدع، باعتباره السياق المباشر الذي يكتنف عملية الإبداع، ويسهم في تشكيلها.

ويشد هذه التوجهات البحثية الأربعة – بعضها إلى البعض – الالتقاء حول الناتج الإبداعي، الذي يتسم أساسا بالجدة غير المسبوقة والفاعلية الواعدة.

جدير بالذكر هنا أننا نتكلم عن الإبداع في الفنون والعلوم والتكنولوجيا، أي نتناول جوهر الإبداع وراء هذه المجالات جميعًا.

والآن نترك هذه المقدمات جميعًا، وندخل في صميم الموضوع.

السيدات والسادة...

أمامنا في هذا الصدد مجموعتان من الوثائق بالغة الدلالة، ذلك أنها تقوم كشهادات كتبها من أهمهم الأمر مباشرة، يعرضون فيها ما يمكن اعتباره بيانات ميدانية جرت حولهم على أرض الواقع. هاتان المجموعتان هما: مجموعة وثائق أجنبية (أمريكية على وجه التحديد)، ومجموعة وثائق عربية. ولكل من المجموعتين خصائصها الفريدة، ومن ثم فإنهما عندما يلتقيان يقدمان لنا الموضوع كحقيقة متعددة الأبعاد، وهو ما يجعل مصداقيتها أكثر ثراء من أية صورة مسطحة.

أبدأ بالحديث عن المجموعة الأمريكية:

نُشرت هذه المجموعة في مجلة American Psychologist، وهي إحدى الدوريات التي تنشرها جمعية علم النفس الأمريكية. وهذه الدورية شأنها شأن سائر الدوريات التي تنشرها الجمعية الأمريكية رفيعة المستوى فيما تنشره شكلاً ومضمونًا.ويجد القارئ هذه الوثائق التي أشير إليها في الأعداد التي ظهرت بين فبراير ١٩٥١ وسبتمبر ١٩٥٤.

ويذكر الكثيرون من المواطنين الذين ينتمون إلى جيلي (الجيل الذي ولد في عشرينيات القرن الماضي) أن هذه الفترة من تاريخ العالم (أعني فترة الخمسينيات المبكرة) كانت تعاني من أصداء الحرب العالمية الثانية (التي انتهت ميدانيـــًا في عام ١٩٤٥)؛ وكان من أهم هذه الأصداء أمران: الأول قيام الحرب الكورية التي دخلتها الولايات المتحدة الأمريكية رافعة علم الأمم المتحدة. والحدث الثاني هو بدء ما سُمي حينها بالحرب الباردة بين معسكرين: الشرقي بزعامة الاتحاد السوفيتي، والغربي بزعامة الولايات المتحدة.

في هذا المناخ عصفت بالولايات المتحدة حركة سياسية اجتماعية عُرفت بالمكارثية نسبة إلى جوزيف مكارثي J.Macarthy الذي تزعمها. وفيما يلي تلخيص أمين لتوجهات هذه الحركة، نقلاً عن قاموس أكسفورد للمصطلحات السياسية:

"كان جوزيف مكارثي الذي تزعم هذه الحركة سيناتور في الكونجرس الأمريكي عن ولاية وسكنسن، على امتداد الفترة من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٧. وقد أُسندت إليه رئاسة اللجنة التي شكلها مجلس الشيوخ للنظر في أمر الأنشطة الحكومية والقائمين عليها. ومنذ ذلك الحين يذكر المؤرخون والمفكرون اسم مكارثي مقرونـــًا بحملته الديماجوجية التي قادها خلال الفترة الممتدة من ١٩٥٠-١٩٥٤، للتحقيق في أمر كل من تشك اللجنة في أنه شيوعي أو جاسوس، واستئصال شأفته من الحياة العامة الأمريكية، وفي تحقيقاته هذه لفت مكارثي أنظار المراقبين للأساليب التي كان يستخدمها، والتي كانت أساليب شديدة الفظاظة والقسوة، إذ كان يحاول أن يخيف الشهود، وكان يقيم دعاوى لا أساس لها من الصحة. ونتيجة لذلك فقد عمَّت البلاد موجة من الهوس القومي، وفي هذا الإطار جرى تدمير السمعة والمصائر المهنية لكثير من الرجال والنساء الأفاضل، وعانت من ذلك

كثيرًا صورة الولايات المتحدة في العالم. ولأمر ما بدأ زملاء مكارثي في اللجنة يشعرون باستفحال أمره، فوضعوه تحت المراقبة. وفي سنة ١٩٥٤ أمكنهم إيقافه عن التمادي في إجراءاته، فانزوى بعيدًا عن الأضواء، ومات في ١٩٥٧، كرجل كسير، فاقد المصداقية. ولكن بعد أن أحدث أضرارًا كثيرة في مصائر أعداد كبيرة من المواطنين ومن المؤسسات" (انتهى التلخيص).

وقد طالت هذه الأضرار – بين من طالت – فريقًا لا يستهان به من خيرة علماء النفس الأمريكيين، كما طالت جمعيتهم ذات السمعة الأكاديمية العالمية رفيعة المقام.

في هذا الموقع أقدم الآن عددًا محدودًا من الأمثلة لما ورد من كتابات توثِّق التأثير القمعي للمكارثية داخل المجال الأكاديمي لنشاط علماء النفس الأمريكيين.

في عدد فبراير من المجلد السادس من المجلة الأمريكية، الصادر في ١٩٥١ (ص ٦٩) نجد تقريرًا مفصَّلاً عما جرى لعدد من الأساتذة في جامعة كاليفورنيا – بيركلي (وهي بهذه المناسبة – تُصنَّف ضمن جامعات الدرجة الأولى في الولايات المتحدة، جنبـًا إلى جنب مع هارفارد، وييل، وكورنيل ... إلخ)، والتقرير بعنوان "جماعة الحريات الأكاديمية"، وتَصدَّره خطاب من أحد كبار علماء النفس ذوي الشهرة العالمية هو إدوارد تولمان E.C. Tolman، بصفته رئيسًا لهذه الجمعية. ويحتوي التقرير على متابعة تواريخ محددة لعدد من جولات الصراع دارت بين عدد من أساتذة الجامعة ولجان غير جامعية، تمثل – بشكل أو بآخر – امتدادًا لسلطة لجنة الكونجرس السابق الإشارة إليها، حول طلب أتى من هذه اللجان يأمر الأساتذة أن يوقعوا على تعهد، هذا نصه: "أقر بأنني لست عضوًا في الحزب الشيوعي، ولا في أي تنظيم يدعو إلى قلب الحكومة باستخدام القوة والعنف، وأنني لست مرتبطًا بالتزامات تتعارض مع مسئولياتي التي تتعلق بالتكريس للحياة العلمية المحايدة، والسهر الدءوب للكشف عن الحقيقة". وقد رفض عدد من الأساتذة التوقيع على هذا التعهد، واعتبروه غير دستوري وغير لائق. وقد فُصل هؤلاء من وظائفهم في الجامعة.

وفي المجلد نفسه كتابات كثيرة تقدم نماذج أخرى من وقائع هذا الصراع؛ (عدد إبريل ص ١٢٧؛ وعدد مايو ص ١٧٩؛ وأغسطس ص ٤٥٤. كذلك توالت الكتابات والمناقشات حول الموضوع نفسه في المجلد ٧ الصادر في ١٩٥٢، عدد مايو ص ١٥٩، وفي المجلد ٨ عدد يونية ص ٢٤٦، وعدد نوفمبر ص ٧٠٧، وعدد ديسمبر ص ٧٤٥، ثم في مجلد ٩ الصادر في ١٩٥٤، عدد سبتمبر ص ٥٣٦، ثم في مجلد ١٠ الصادر في ١٩٥٥، عدد يناير ص ٤٣. وعدد فبراير ص ٨٧، وعدد مارس ص ١٢١، وعدد يوليو ص ٢٨٩.

أكتفي بهذا الحصر، ولا أدعي أنه حصر شامل، لكنه يشير إلى مواضع المناقشات التي اعتبرتها ذات دلالة هامة ومباشرة بالنسبة لموضوعنا.

أتوقف بعد ذلك عند حديث هام لإدوارد تلومان، وقد دعي لإلقائه في جامعة ماكجيل Mcgill University في كندا في ١١ يونية ١٩٥٤ (قبيل انحسار المكارثية) ويمكن اعتبار هذه الدعوة بمثابة تكريم لهذا الأستاذ أو رد اعتبار له من بعض من تتلمذوا عليها خارج الولايات المتحدة. أما من ناحية المضمون فتتمثل أهمية هذا الخطاب في أن تولمان يقدم فيه تصورًا تخطيطيا للأثر المدمر الذي يمكن أن يُحدثه مناخ سياسي اجتماعي قامع ومهدد على العمليات المعرفية. عنوان الحديث

الحرية والاحتياجات المعرفية Freedom and cognitive، جدير بالذكر أن النقاط الرئيسية التي يقدمها تولمان في هذا الحديث لم تكن تأملات نظرية خالصة، ولا آراء اجتهادية حماسية، لكنها كانت صياغات لنتائج تجريبية خرج بها تولمان نفسه (ومساعدوه وزملاؤه) من دراساتهم المتأنية على امتداد أكثر من ثلاثين سنة. ومع أنه استخلص هذه النتائج في سياق التجارب المعملية التي كان يجريها على حيوانات التجارب للكشف عن دقائق عمليات التعلم learning وحل المشكلات، Problem solving، فقد كان يجري هذه التجارب وعينه على كيفية الامتداد بها إلى عالم الإنسان شأنه في ذلك شأن الكثيرين من علماء النفس التجريبيين الذين يعتبرون التجريب على سلوك الحيوان خطوة نحو فهم المقدمات المبكرة لسلوك الإنسان، مع اتخاذ كافة الاحتياطات المنهجية اللازمة لعبور الثغرة الكبيرة بين محددات السلوك الحيواني ونظائرها في السلوك البشري. وفيا يلي أهم الاستخلاصات كما يقدمها تولمان:

١- تبين أن فئران التجارب تحقق أفضل تعلم تحت شروط: ألا تكون جائعة، وألا تكون في الوقت نفسه عطشانة جدًّا أو خائفة جدًّا. أي ألا تكون في حالة عصب شديد stress يهدد كيانها أو وجودها نفسه.

٢- تقوم الفئران بملاحظة وتفحص أية نماذج بصرية جديدة دون وجود دوافع تدفعها إلى ذلك، هذا تحت شرط وجود الطعام والماء في متناولها.

٣- تبين أن القردة والشمبانـــزي يمكنها أن تتعلم تشغيل آليات معقدة؛ طلبـــًا لتحصيل مجرد حالة من السرور المعرفي"Cognitive pleasure الذي يترتب على ذلك التشغيل.

٤- هناك نتائج تجريبية كثيرة ومتنوعة تشهد بوجود ما يمكن أن نسميه دافع حب الاستطلاع Curiosity الخالص عند الحيوان. وفي الوقت نفسه هناك نتائج تجريبية تشهد بمدى هشاشة

هذا الدافع، بمعنى قابليته للتأثر الشديد بالدوافع العملية مثل الجوع والعطش والجنس والخوف.

وحول هذه النتائج ودلالاتها يقول تولمان: يلزمني أن أقرر هنا، أننا (أي علماء النفس التجريبيين) نرى هذه الحقائق بصورة واضحة في سياق دراساتنا المعملية، أوضح مما نراها في مواقف الحياة العابرة في حالة الإنسان.

ومن هذه النتائج المذكورة يصعد تولمان إلى مستوى أعلى من التعميم. وذلك في الاستنباطين الآتيين:

أ- كل تمييز discrimination جديد، وكل تعلم جديد، وكل حل لمشكلة جديدة يتطلب لاستحداثه تنشيط دافع نوعي لحب الاستطلاع.

ب-وأي تنشيط لهذا الدافع في أية لحظة إنما يعتمد بطرق مختلفة على مجموعة الاحتياجات العملية التي تتوفر عند الكائن (بدرجة متوسطة الشدة) في هذه اللحظة أو اللحظات.

وفيما يلي ذكر اثنين من هذه الطرق المختلفة:

أ- نشاط أي دافع عملي (الجوع مثلاً) يمكن له أن يسهل تنشيط الدوافع المعرفية (حب الاستطلاع مثلاً)، بشرط أن يظل ذلك الدافع العملي متوسط الشدة.

ب-إذا زادت شدة الدافع عن مستوى معين، فإنه يعوّق نشاط الدافع المعرفي أيا كان توجهه.

في هذا الموضع أكتفي بهذا الجزء لذي أوردته من حديث تولمان. وما يهمني الآن هو بيان أن هذا الأستاذ اختار إبراز النتائج والاستنباطات التي ذكرتها لما لها من دلالات مبكرة تشير إلى حقيقة العلاقة بين "الوظائف المعرفية الخالصة" وبعض الشروط السياقية التي تكتنف هذا النشاط وتؤثر فيه سلبـــاً أو إيجابـــاً. وقد تصدى هو نفسه (أعني تولمان) في بقية حديثه إلى بيان كيفية الامتداد بخطوط الاستنباط المنهجي الحذر من حقائق المستوى تحت البشري للسلوك، وصولاً إلى ما يناظرها في المستويات السلوكية العليا للإنسان.

يكفيني هذا الحديث عن المجموعة الأجنبية (الأمريكية) من الوثائق، وهي تشير بوضوح إلى الأثر المدمر الذي يصيب "النشاط المعرفي" نتيجة لتعرض الكائن للعصب stress الشديد الذي يتنامى لديه مع ارتفاع درجة الدوافع العملية، التي حددها تولمان بأنها: الجوع، والعطش، والجنس، والخوف.

وأنتقل الآن إلى المجموعة العربية من الوثائق، وهي تتناول موضوعنا نفسه (الحرية والإبداع)، ولكن على المستوى الإنساني مباشرة.

تتألف المجموعة العربية من شهادات كتبها حوالي خمسين مبدعًا، ما بين شاعر وناثر وناقد، وقد جاءوا من مواقع مختلفة من الوطن العربي على امتداده، لا من مصر وحدها، كتبوا هذه الشهادات استجابة لدعوة واحدة محددة، عن خبراتهم الشخصية في علاقتهم كمبدعين "بالحرية السياسية" (أو مقلوبها، أي القمع السياسي).

وكان مصدر الدعوة التي وُجِّهت إليهم هو رئاسة تحرير مجلة "فصول"، وقد جُمعت هذه الوثائق جميعًا في عدد واحد من المجلة، وهو العدد الثالث من المجلد الحادي عشر المنشور في خريف ١٩٩٢.

جدير بالتنبيه هنا أن أحد الفروق الرئيسية بين المجموعتين من الوثائق العربية والأمريكية، أن المجموعة الثانية – أي الأمريكية – تتناول وقفة محددة بزمان معين؛ ومكان معين أي وقفة المقاومة العقلانية ضد هجمة المكارثية التي كان لها أول وآخر تاريخي منذ عام ١٩٥٠ وحتى عام ١٩٥٥، وهو ما يشبه الاضطراب المرضي الجاد acute syndrome. أما المجموعة العربية من الوثائق فتتناول حالة مزمنة Chronic: الإشارة على إطلاقها إلى القمع والتهديد بالعدوان على المبدع باسم السلطة (السياسية أحيانًا والمجتمعية أحيانًا)، لا تذكر لها بداية، ولا تُعرف لها نهاية.

ونظرًا للأهمية البالغة التي استشعرتها إزاء كل ما ورد في تلك الشهادات: من وقائع واستنباطات وتأملات، ونظرًا لاحترامي لثراء هذه المادة، مع تنبهي الدائم لمحدودية هذه المحاضرة التي أقدمها في مقامنا الراهن. فلم أجد بدًّا من التوجه الانتقائي نحو هذه المادة، أنتقي بعض النقاط، دون البعض الآخر لاعتبارات ربما وُصفت بالمرهفة، تتعلق بالمواءمة والمباشرة مع مسار الحديث الذي نحن بصدده.

وإلى حضراتكم بعض الإشارات والتنبيهات التي انتقيتها:

أولا: من شهادة الكاتب الفلسطيني أحمد عمر شاهين (ص ٣٦–) أهم ما استوقفني قوله: "... وبتّ أخشى – أكثر ما أخشى – تلك النبتة التي بدأت تبـــزغ بداخلي وتتراقص أمام عيني كلما أمسكت القلم، ونسميها بالرقيب الداخلي، تنبهت لها منذ البداية وحاولت قمعها ... لكن ليس بدرجة كافية". وفي موقع آخر من الشهادة نفسها يقول الكاتب: (مشيرًا إلى تلك النبتة الصغيرة) "وهي أخطر ألف مرة من الرقيب الخارجي أو أية سلطة قمع تأتي من خارج الذات ... حاولت قمع هذه

النبتة، لكني بصراحة لم أجتثها تمامًا، فروايتي الأخيرة "المندل" اضطررت أن أنتـــزع منها قبل النشر عشرات الصفحات التي قد تسبب من المشاكل الكثير ... أعرف تماما أنني أنا الذي انتزعتها .. لكن المسئولية تقع بالدرجة الأولى على المناخ الثقافي العام.

ثانيـــاً: الشهادة الثانية التي انتقيتها منشورة باسم أحمد إبراهيم الفقيه (من ليبيا) (ص ١٨-). وفيها يقدم الكاتب فكرة العلاقة الجدلية بين الحرية والإبداع؛ فكما أن توفر الحرية يعطي دفعة لانطلاق الإبداع، فكذلك لابد للإبداع من أن يقتحم آفاقًا جديدة بحيث يترتب عليه توسيع آفاق الحرية، ومعنى ذلك ألا نكتفي بأن يأتي الإبداع ناتجًا من الحرية، بل ينبغي للإبداع أن يتجاوز ذلك ليصبح منتجًا للحرية.

ثالثًا: الشهادة الثالثة منشورة باسم نبيل سليمان من سوريا (ص٣١١-). الجديد في هذه الشهادة أن صاحبها لا يكتفي بسرد بعض الوقائع التي تتعلق بخبراته المباشرة مع القهر السياسي، لكنه يشير كذلك إلى خبراته مع ما يسميه "القهر الاجتماعي". يقول في ذلك: "لن أكرر المعزوفة التي تؤكد أن رقيبـــاً ما قابع دوما في مؤخرة رأس الكاتب العربي .. فالمعزوفة هذه تعني الرقيب السياسي، لكنني أعني هنا الرقيب الاجتماعي ... " ثم يضيف نبيل سليمان إلى ذلك قوله: "على أني أود أن أضيف أن الناقد قد يكون رقيبـــاً آخر على الرواية ... وأستطيع أن أؤكد الآن أن الكاتب عندما يتخلص من الناقد وهو يكتب ... فإن فسحة الحرية تكبر، بل إن فسحة المخيلة والإبداع تعدو مساحة الروح" (يقصد هنا الناقد كما يتمثله المبدع في نفسه، أي عندما يسرف المبدع في انتقاد كل خطوة يقدم عليها أثناء إبداعه).

وبعد أن يتكلم نبيل سليمان عن الفئات الثلاث من القمع (باسم السلطة السياسية والمجتمعية والنقدية) يتكلم عن نوع رابع يسميه القمع الحضاري الغربي؛ يقول في ذلك: ".. على الرغم من أنني أرى برعب كم بيننا وبين الحرية، ليس فقط لأن القامع العربي أكمل عدته ... بل لأن الحرب العالمية الثالثة في الخليج - وفيما كان يدعى بالعالم الاشتراكي - قد كشفت القامع الحضاري الغربي أيضًا، وتريد أن تحولنا إلى هنود حمر في القارة الأمريكية العالمية الموهومة".

رابعًا: الشهادة الرابعة منشورة باسم مريد البرغوثي من فلسطين (ص ٢٨٧-) والفكرة الجديدة التي يقدمها هذا الشاعر تتمثل بوضوح في قوله: "إن حرية الشاعر هي اختياره الذكي لقيوده"، هذه نقلة جديدة في معنى الحرية، فالحرية هنا ذات معنى إيجابي يتمثل في انطلاق فعل الإبداع نفسه. ويقدم الشاعر نفسه معنى إيجابيـــاً آخر لمفهوم الحرية، وذلك في قوله:"وإذا كان للمرء حرية أن يتخلى عن

أمر ... فمن العدالة والحق أن تتاح له أيضا حرية الاحتفاظ به ... والمثير للشفقة والسخرية والحيرة أن كثيرًا من المتحدثين عن "الحرية" لا يفهمونها إلا في سياق رفض شيء ما، لا في سياق الاحتفاظ بشيء ما كذلك.

وفي مزيد من السعي نحو توضيح المعنى الإيجابي للحرية يقول الشاعر في موضع آخر من شهادته: "فأنا أؤمن إيمانـــًا واقعيـــًّا بأن الحرية فعل هجومي، وليست منصة استجداء ومطالبات رقيقة".

خامسًا: والشهادة الخامسة منشورة باسم يحيى خلف من فلسطين. المعنى الأول الذي يفاجئنا به الكاتب هو التوحيد بين الإبداع والحرية. يقول في مستهل شهادته: "لا أعتقد أن هناك حافزًا للكتابة الإبداعية أكثر من الرغبة في ممارسة الحرية، أعلى درجات الحرية".

ويستطرد الكاتب ليقول (واصفًا حالة الفلسطينيين): "فالمرء يناضل من أجل أن يكون له وطن، أن يجد الاستقرار والطمأنينة، وأن يجد المكان الذي يضع فيه طاولة الكتابة، وتكون له فيه مكتبة ... وعلى سبيل المثال أذكر أنني تنقلت بين أربعة أقطار عربية خلال خمس سنوات، وفي كل بلد كنت لا أكاد أجد الاستقرار النفسي الذي يمكنني من ممارسة أعلى أشكال الحرية .. أعني الكتابة ... إنني أذكر ذلك مثالاً حيـــًّا، ليعرف القارئ ماذا تعني المعيشة في ظروف النفي والغربة؛ إذن فالكاتب الفلسطيني يناضل نضالاً مركبـــًا. يناضل من أجل حرية الوطن، ومن أجل حرية التعبير في وقت واحد".

سادسًا: الشهادة السادسة منشورة باسم أحمد عبد المعطي حجازي من مصر (ص ٣٢). وهو يتكلم عن الحرية بمعنى أشمل من الحرية الحياتية، معنى يمكن أن نطلق عليه الحرية الوجودية، لا نسبة إلى وجودية سارتر، أو هيدجر، أو كيرجارد ... إلخ، ولكن نسبة إلى الوجود الذي يشمل الحياة والموت معا. يقول في ذلك: "ومادمنا لا نتحقق إلا حين نموت، فالموت عندي ليس نقيضًا للحياة، بل هو الذروة التي نصل إليها في طلبنا الحرية". ويقول في موضع آخر: "إن تجربتي مع الإبداع هي ذاتها تجربتي مع الحرية. والتجربتان متداخلتان ممتزجتان بحيث أجدني عاجزًا عن الإشارة إلى نقطة البداية، هل كان هاجس الحرية هو الذي فتح لي طريق الشعر، أم أن الشعر هو الهاجس الأول الذي دفع بي في دروب الحرية".

إلى هنا ينتهي حديثي عن المجموعتين من الوثائق الأجنبية والعربية. وأحاول الآن أن أعود إلى التساؤل الأصلي الذي أملى عليّ الرجوع إليهما، وهو استجلاء العلاقة بين الحرية والإبداع؛ كلتا المجموعتين تعالج الموضوع، ولكن الفرق بين المعالجتين يكشف عن أننا بصدد إطارين حضاريين، أو مستويين حضاريين مختلفين.

ما تنقله مجموعة الوثائق الأجنبية خلاصته أن قمعًا، أو تهديدا بقمع، وقع باسم السلطة السياسية، على مجموعة من المواطنين ممن هم مؤهلون للإبداع العلمي (في علم النفس)، ويأتي هذا في سياق ينتهج أصلاً نهج احترام الحريات الفردية التي توفر شرطًا من شروط الإبداع في العلم، وقد انتهز تولمان – وهو أحد كبار علماء النفس – هذا الموقف التاريخي؛ ليوضح أنه يمكن تفسير نتائجه الكارثية على نشاط القدرات العقلية الإبداعية، بالرجوع إلى نموذج تجريبي معين، يجري تفعيله في البحوث التجريبية المعملية التي تجرى على سلوك الحيوان، والتي يتضح منها أن أفضل نتائج تنشيط الوظائف المعرفية تتحقق تحت شروط حياد الاحتياجات العملية الرئيسية، وهي: الجوع والعطش والجنس والخوف. وقد بدا في حديث تولمان أن السياق الإنساني الذي يصدق عليه التفسير بهذا النموذج سياق قلما كان يحدث في مجتمع الولايات المتحدة الأمريكية. ومن المتابعة التاريخية عرفنا أن الشروط السياسية المجتمعية التي أفرزت هذا السياق انتهت فعلا بانتهاء نشاط لجنة الكونجرس في أواخر عام ١٩٥٥، هذا ما أوردته الوثائق الأجنبية بشكل مباشر أو غير مباشر.

أما ما نطقت به الوثائق العربية، فيقدم أوصافـــًا لسياقات تتكرر فيها الأحداث المؤذية أو المهددة بالأذى، وتأخذ أشكالاً متعددة من القمع، منها: القمع السياسي، والقمع المجتمعي، والقمع باسم قواعد النقد، والقمع باسم ما تسمح به الحضارة الغربية وما لا تسمح به. ومعنى ذلك – بلغة شديدة التبسيط وشديدة التلخيص للفرق بين الرسالتين اللتين حملتهما الوثائق الأجنبية والوثائق العربية – أن الوثائق الأجنبية تحدثت عن نوع واحد من القمع، هو القمع السياسي، وقدَّمته على أنه حدث في فترة زمنية محدودة، استمرت خمس سنوات. أما الوثائق العربية فتحدثت عن أربعة أنواع من القمع أو التهديد بالقمع، وتحدثت عن هذه الأنواع على أنها تتكرر كثيرًا، و لم تتحدث عن بداية زمنية محددة ولا عن نهاية زمنية محددة لحدوثها، أي أنها تحدثت عن حالة ممتدة في الزمن لا نعرف لها بداية ولا نهاية. فإذا أضفنا إلى ذلك أن المادة التي قدمتها في هذا الحديث مستقاة من ست شهادات فحسب، فمعنى ذلك أن احتمالات الزيادة واردة جدًّا، فلو أنني رجعت إلى الشهادات الخمسين، لاتضح ما انطوت عليه هذه الشهادات من نقاط كارثية بالنسبة لمهددات الإبداع.

والآن ماذا نستنتج من هذه المقارنات؟
أولاً: قصدت من هذه المقارنات أن أجعل منها إطارًا أساسيـــًا يحد من الانطلاق مع التعميمات والشطحات التي لا ضابط لها، خاصة أن طبيعة الموضوع الأصلي مغرية بذلك.

ثانيـــًا: هذه المقارنة وانتقاء النموذجين اللذين أقارن بينهما كانت هي الطريق المنهجي الآمن الذي أسلكه لبيان حقيقة الوضع لدينا في هذه المشكلة، التي يمكننا إعادة تسميتها بأنها "الإبداع ومحاذير الحرية"، ولعل هذه المقارنة بين النموذجين تذكر بعضنا بما نسميه في برامج بحوثنا بالمقارنة بين "المجموعة التجريبية" و"المجموعة الضابطة".

ثالثـــًا: تشير مجموعة النتائج التي نخرج بها في مقارناتنا إلى أننا بصدد اختلاف كيفي (لا مجرد اختلاف كمي) بين وضع المشكلة لدينا ووضع المشكلة كما تقدمها الوثائق الأجنبية. فالمشكلة لدينا مركبة أضعافـــًا مضاعفة إذا ما قورنت بنظيرتها كما تصورها الوثائق الأجنبية.

رابعـــًا: الاستنتاج الذي نخرج به مباشرة من الحقيقة السابقة هو أننا لا نستطيع أن نحل المشكلة كما هي قائمة لدينا بالمحاكاة المباشرة، أو التلمذة المباشرة على أساليبهم التي اتبعوها عند تولمان في حل مشكلتهم.

خامسًا: يبدو أنه في نهاية المطاف لابد من استنتاج أن الطريق إلى حل مشكلة العلاقة بين "الحرية والإبداع" لدينا سوف يتحقق من خلال سلسلة من الحلول والتطويرات الشاملة للعلاقة بين الفرد والمجتمع.

صلاح فضل:
نشكر الأستاذ الجليل الدكتور مصطفى سويف على هذا الدرس المنهجي والتأمل العميق، وبضدها تتبين الأشياء ونستطيع أن نستكشف آفاق العلاقة المركبة والمعقدة بين الحرية والإبداع.

أحمد فهمي:
أشكر مكتبة الإسكندرية لاستضافتها أستاذنا الكبير الدكتور مصطفى سويف صاحب مدرسة الأسس النفسية للإبداع الفني، وهذه المدرسة التي كان لها فضل كبير على نخبة من التلامذة الذين أصبحوا أساتذة بدورهم وأذكر منهم الدكتور شاكر عبد الحميد. إن الدكتور مصطفى سويف

هو رائد هذه المدرسة في علم النفس في مصر وفي المنطقة العربية وفي العالم كله. ولدي ملاحظات سريعة حول أهمية الحرية وما ذكره الدكتور مصطفى سويف حول الحملة المكارثية في أمريكا، وأضيف أن هذه الحملة لم تكن على أساتذة الجامعة فقط، ولكنها طالت كل المفكرين والمبدعين في الولايات المتحدة الأمريكية، بل شملت أيضًا المبدعين من الممثلين مثل شارلي شابلن الذي ترك أمريكا وذهب إلى سويسرا، والفنان والمخرج المبدع أورسون ويلز والذي تأثر كثيرًا ومعه عدد كبير من فناني المسرح والسينما في أمريكا.

وكما ذكر الدكتور مصطفى سويف اسم أحمد عمر شاهين وأحمد الفقيه، والأول من فلسطين، وقد حالفني الحظ أن أعرفه بشكل يومي في اتحاد الفنانين والكتَّاب في أتيليه القاهرة، أما الأستاذ أحمد الفقيه فقد تعرفت عليه في الجلسة الأسبوعية للأستاذ نجيب محفوظ، وكلاهما شبه مهاجر من بلده أو بمعنى أصح مطرود، وذلك بسبب إبداع كل منهما.

ونحن في مصر لدينا مبدع تمكن من التخلص من هذه القيود وهو المبدع الأستاذ نجيب محفوظ، والذي رافقته أكثر من ثلاثين عامًا، إن هذا الكاتب صاحب "أولاد حارتنا" والكثير من الروايات المبدعة يظهر في جلساته الخاصة كشخص متواضع ولطيف ومهذب، ولكنه في رواياته ثائر وحر إلى أبعد الحدود، ونرى ذلك بوضوح في روايته البديعة "أولاد حارتنا" وكذلك في روايته القوية "ثرثرة فوق النيل" التي كانت إرهاصًا ومقدمة لنكسة يونية ١٩٦٧. إن المبدع يستطيع في ظل الكبت الموجود في المنطقة العربية أن يكتسب طريقة وأسلوبًا ليعبر به عن كل أفكاره.

سعيد حسن زلط:

بالقياس التاريخي المؤلم على الصعيد العربي عامة والمصري خاصة، ومن صفحات التاريخ نجد أن التاريخ يعيد نفسه الآن بشدة، إن الهجمة التاريخية المكارثية موجودة بوفرة الآن، وجميع العناصر المهددة للمعرفة والإبداع مازالت موجودة بشدة. ونذكر بألم أن هناك أكثر من ٤٥ سجنًا سريـــًّا، وعندي بشرى أليمة لشعب مصر حيث سيتم اعتماد ٢ مليار جنيه مصري لإنشاء سجون جديدة للمصريين. وأسأل العالم الجليل الدكتور مصطفى سويف، ما طريقة العلاج القومي لبعث المعرفة والإبداع وحماية الشعب المصري والعربي؟

صفوت درويش (خبير أممي):

في الحقيقة، لقد استمتعت بالمحاضرة، لكنها أثارت في ذهني نقطة جوهرية: ما الذي نريده من هذا اللقاء؟ وأتصور أنه تم عرض مقارنة بين المكارثية وبين وجهة النظر العربية، ولكننا نود معرفة

وجهة نظر الدكتور مصطفى سويف الشخصية حول كيفية النمو والإبداع والتقليل من القيود على حريات المجتمع المصري؟

ماجدة السيد (مهندسة زراعية):

أنا امرأة مصرية أعاني من القمع وأريد أن أعرف كيف أتخلص من قيود المجتمع، وكيف أحقق الحرية والإبداع.

جهاد السيد (بكالوريوس خدمة اجتماعية):

ما رؤية الدكتور مصطفى سويف لحل مشكلة المبدع في الوطن العربي في مختلف المجالات؟

صلاح فضل:

أعتقد أن الأفضل هو صياغة السؤال ليكون حول كيفية توسيع هامش الحريات بمستوياتها المختلفة الشخصية والاجتماعية والسياسية والدينية؟ وهل هذا التوسيع ضروري لتشجيع الإبداعات بالعلم؟ مثلا ما علاقة الحريات للابتكار في العلوم؟ إن نصيب العالم العربي في الابتكارات محدود للغاية، لو ألغي الوطن العربي من تاريخ الإنسانية فلن ينقصها شيء في العصر الحديث لأن هذا الوطن لم يضف شيئا في العصر الحديث، ومن الواضح أن السبب البنيوي لهذا العجز عن الإبداع هو أوضاعنا الفاقدة للحرية، والسؤال هو كيف يمكن تغيير هذه الأوضاع؟ ما هو الثمن الموجع لهذا التغيير؟ وهل نحن مستعدون لتحمله كمجتمعات وأفراد؟ وهل ثقافتنا مضادة للحرية؟ وما الذي يوجد في ثقافتنا؟ وعلى الرغم من تغنينا الدائم بها، إلا أنها في الأصل سبب البلاء في تعويق قدرتنا الإبداعية!

محمد شمروخ (مهتم بالفلك):

أعتقد فعلاً أن ثقافتنا ضد الإبداع؛ لأن الإبداع أصبح تهمة إذ إنه يستلزم وقتًا ومالاً، ولا يوجد عمل يحتوي على التغيير والتجديد يحدث في ثانية، فهو يتطلب الوقت والجهد والأفكار الجديدة والأنماط الجديدة من التفكير، ولم يعد المجتمع يقبل ذلك حتى داخل الجامعة، ولم يعد الأمر متعلقًا بالسياسة فقط بل، حتى الأفكار العلمية الجديدة التي يتم تداولها داخل الجامعة أصبحت غير مقبولة، أي أفكار جديدة من أي نوع أصبحت غير مقبولة لدى الناس، إن كل الأفكار الجديدة في حاجة إلى وقت لكي تظهر، والعالم بطبيعته ليس مهندسًا وليس طبيبـــًا، إذ لابد أن يقوم بدراسة ظاهرة تنجم عنها نتائج تستغرق سنوات طويلة، وقد أصبح ذلك غير مقبول الآن.

وفي الغرب، يوجد قدر من القمع تجلى في ظل العولمة، إن الأفكار الجديدة في الفيزياء وفي الدواء وفي التكنولوجيا لم تعد مفتوحة للجميع، فلم يعد هناك سماح للتفكير المفتوح لاستنباط نتائج أخرى مختلفة عن النتائج الموجودة في ظل سيطرة الشركات الكبيرة والسيطرة الأمريكية أحيانًا، لم يعد مقبولاً القيام ببحث معين تحديدًا، وقديمًا في كامبريدج ذُكر أن ليوناردو دافنشي على الرغم من علاقاته المتعددة بأهل السياسة والحكم في أوروبا إلا أنه لم ينشر له شيء قط من أفكاره العلمية، ومكث داروين — رغم اعتراضي على بعض أفكاره – عشرين عامًا لم ينشر أفكاره عن التطور قط، وبعد أن نشرها كان يندهش عندما يرى من يدافعون عن أفكاره يعلنون عن ذلك بمنتهى الشجاعة على مرأى ومسمع من الناس من فرط اعتقاده بضغط المجتمع على المبدعين.

ألفت يوسف (طالبة بقسم علم النفس – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية):

كنت أود أن أسأل الدكتور مصطفى سويف عن كيفية استخدام علم النفس في الوصول إلى أقصى درجة من درجات الحرية من أجل الوصول إلى أقصى درجة من درجات الإبداع؟ ومن وجهة نظر الدكتور مصطفى سويف، هل توجد الآن حرية علمية للوصول إلى أقصى درجة من درجات العلم؟

صلاح فضل:

إن المتحدثة ألفت يوسف هي أول متحدثة من طالبات قسم علم النفس، وهي تتساءل كيف يمكن أن تستخدم دراستها وتخصصها لتوسيع وتعزيز دائرة الحرية لديها وبالتالي إمكانية أن تبدع أكثر. وليسمح لي الدكتور مصطفى سويف بأن أقوم بتوسعة رقعة سؤالها بإضافة شيء إليها، فهذه الأجيال الجديدة الشابة غير مقيدة بكتب أو مراجع، ولكن عندها منافذ إلى المعرفة في العالم بأكمله عن طريق الإنترنت وغيره، إن حرية المعلومات الآن وتدفقها بشكل لم تشهده أية مرحلة تاريخية سابقة، ويستطيع أي شخص بشيء بسيط من الجهد والمعرفة أن يستقبل ملايين المعلومات ما لم يكن أحد في الأجيال السابقة يحلم بأن يستقبلها، هل هذه الحرية الآن تتيح فرصة أكبر للإبداع؟ وكيف يمكن للشباب أن يفيد من هذه الحرية لتحقيق درجة عليا من الإبداع؟

عصام محمد الحلبي (الفرقة الثانية – قسم علم النفس – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية):

نحن نرى أن الحرية هي التي تنتج إبداعًا، لكننا نريد أن ننظر إلى الأمر من وجهة النظر الأخرى، إنه في ظل ظروف قمعية يوجد مبدعون، فما ظروف هذا الإبداع؟ أيضًا، هل من الممكن لأي مجتمع – سواء داخل مصر أو خارجها – أن يصنع إبداعًا؟ أي توافر عناصر مبدعة تتمكن من

صناعة نجم أو عالم أو فرد فذ في مجال معين؟ هل من الممكن تغيير ثقافة الأسرة وتغيير نفوس الناس لصناعة فرد جديد؟

صلاح فضل:

في ضوء سؤال المتحدث الطالب عصام محمد الحلبي، أقول لقد قسم الدكتور مصطفى سويف في البداية الإبداع إلى مستويين: إبداع في الآداب وإبداع في الفنون، والسؤال هو هل كلا النوعين يتطلبان شروطًا متساوية من الحرية، أم أن الإبداع في الآداب يمكن أن يكون فقدان الحرية فيه حافزًا للتحدي إذا كان فقدانًا محدودًا وليس مسرفًا؟ وإذا عقدنا مقارنة بين المجتمع المصري والمجتمع السعودي فسوف نجد أن المجتمع السعودي به قمع شديد جدًّا فلا يوجد فيه مبدعون كبار حتى في المجالات الإنسانية، فلا شعراء من الدرجة الأولى ولا روائيين عالميين، في هذه الظروف الشديدة من القمع لا يمكن أن يكون هناك مبدع، لكن القمع في المجتمع المصري ليس بالقدر نفسه ومن هنا يسمح بخروج نجيب محفوظ ومبدعين آخرين، لكن هذه الشروط نفسها لن تسمح لعالم فيزياء مصري في الجامعات المصرية أن يحصل على نوبل؛ لأن الأمر يحتاج إلى حرية جماعية وليس مجرد الحرية الفردية.

إيمان شرف (الفرقة الثانية – قسم علم النفس – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية):

لاحظت أن الدكتور مصطفى سويف قد استعان في حديثه بكثير من الكتاب الفلسطينيين، هل هذا من باب الصدفة أم لا؟ وأرى أنهم أكثر من تعرض إلى القمع وسيكون رأيهم أكثر مصداقية. أيضا، ما هدف جورج مكارثي من تطبيق القمع في الغرب ومنع المبدعين من تحرير أفكارهم خاصة أن الإبداع يسبب التقدم؟ وقد شرح الدكتور مصطفى سويف نوعين من الحرية: الأول خارجي بيئي والثاني داخلي نفسي، فما معنى الحرية الداخلية النفسية؟

أسماء مختار (الفرقة الثانية – قسم علم النفس – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية):

لقد أشار الدكتور مصطفى سويف إلى الحرية وارتباطها بالإبداع، إلا أنه ركز على الحرية السياسية، فما بال الحرية النفسية وتأثيرها على الإنسان وعلى قدرته في الإبداع وخاصة في العالم العربي المهمَّش الذي لا تأثير له في العالم الحالي؟

أمل (لم تذكر المتحدثة باقي الاسم):

بالنسبة لرأيي عن الفرق بين العالم الغربي والعالم العربي توجد قبائلية في التعامل بحيث يحصل الإنسان على الفرص في الحياة؛ وفقًا لمن يستطيع أن يساعده في الحصول عليها، وليس وفقًا لكفاءته، ويختلف ذلك نهائيـــًا عن العالم الغربي الذي يعتمد على الكفاءة فقط في تقييم الأشخاص، وهذه حقيقة لا جدال فيها وهي السبب الأساسي لضعف الأمة العربية، وهي بؤرة الفساد في الوطن وليست الحرية، والحكومات بريئة من هذا النوع من الفساد.

بالنسبة للإبداع السعودي، فإنني أعتقد أنه لا توجد مخرجة مصرية حصلت على جائزة الأوسكار كما حصلت عليها المخرجة السعودية، كما أنني عشت في المجتمع السعودي وأقول إنه لا يوجد به قمع، يكفي أنني كسيدة أستطيع أن أخرج للتنـــزه والذهاب إلى الملاهي في أماكن مخصصة بالنساء، دون أن أواجه رجلاً يضايقني كما يحدث في مصر.

مها محمود (الفرقة الرابعة – قسم علم النفس – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية):

لماذا تم تحديد أنواع القمع في المجموعة الأمريكية في حين لم يتم تحديدها في المجموعة العربية؟ وهل هذا أيضًا يعد من أنواع القمع؟

صلاح فضل:

إن الحالة الأمريكية ارتبطت بظروف مؤقتة استمرت خمس سنوات، أما الحالة العربية فهي تعاني من القمع منذ أن خلقت وحتى الآن لم نشهد فترة حرية.

عادل شكري (أستاذ بقسم علم النفس – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية):

حتى الآن لا أعرف العلاقة بين الحرية والإبداع وفي أي اتجاه تسير؟ فلدينا عدة تيارات فكرية وعدة تيارات سياسية، توجد لدينا الماركسية والشيوعية من المعسكر الشرقي، وقد واجه الانغلاق في هذا المعسكر انفتاحًا على الناحية الأخرى في المجتمع الأمريكي، وعلى الرغم من الانغلاق فقد ظهر ديستويفسكي الروائي العظيم، وظهر أول رائد فضاء في العالم من خلال تطور بحوث الفضاء في الاتحاد السوفيتي قبل أمريكا، وفي الوقت نفسه مجمل العمليات الحسابية والرياضية والتطور فيها كان يسير بشكل متوازٍ بين المعسكرين الشرقي والغربي. إن مجمل العلاقة يجعلنا نتساءل: إن القمع الذي تعاني منه المنطقة العربية لم ينتج إبداعًا، في حين أن هذا القمع نفسه وأكثر منه أنتج مبدعين أفذاذًا في مجتمع الكتلة الشرقية، فما اتجاه العلاقة في ضوء ذلك؟ نحن نحجِّم من كلمة الحرية كمكوِّن معرفي وسلوكي، إن رؤيتنا الذاتية هي التي تخلق لدينا نوعًا من الإبداع وفقًا لمفهومنا للحرية بشكل عام.

مصطفى سويف:

أكرر الشكر على هذه الثروة الكبيرة من الآراء والأفكار التي أثيرت بمناسبة هذا الحديث، والتي طُرحت أمامنا حتى نتداول حولها لعلنا نصل إلى نظرة أعمق قليلاً – وليس كثيرا – فيما يتعلق بالعلاقة بين الحرية والإبداع. وسأمنح نفسي حرية الكلام في انتقاء هذا الحديث على هذا النحو الذي اخترته، لقد فكرت كثيرًا منذ طُرح عليّ الموضوع لكي أتحدث فيه، ووجدت أن هناك طرقًا مختلفة منها الشكل التقليدي الذي يعتمد على قال فلان وعارض فلان ... إلى آخره، لكنني لأمر ما شعرت بأنني غير مقتنع بهذا الأسلوب لأن بحوث الإبداع أصبحت الآن أنضج من هذا بكثير، ويوجد الكثير من الأساتذة الزملاء له إنجازاته في بحوث الإبداع، ثانيـــًا عالميـــًا تعد إنجازات هذه البحوث كبيرة، ونقد هذا الموضوع في زيادة مستمرة؛ مما جعلني أحجم عن استخدام طريقة أخرى. ومنذ فكرت في الطريقة التي اتبعتها وبدأت تتبلور، أحسست أنها قد تكون صادمة للبعض، لكنني في الوقت نفسه أميز عادة بين نوعين من الصدمات: صدمات سارة وصحية، وصدمات مرضية ومؤذية، وتصورت أن الصدمة في حالة الكلام بهذه الصورة ستكون من النوع الجيد والصحي؛ لأنه تقريبـــًا إذا استمررنا في اتجاه عرض أدبيات المادة ثم دراسة جزء من هذه الأدبيات على ضوء هذا العرض للخروج بنتيجة محددة، فإن لهذا الاتجاه علاقة بعدم المصداقية. وشعور من تقدم في السن وتراكمت خبرته وتجربته في الحياة بأن هذه الأفكار سوف تكون ذات جذور معلقة في الهواء، ولا وجود لها في الواقع، بعكس الشعور لو أن الشخص عالم في أمريكا مثلاً، تكون نظرته مختلفة. وقد مررت بتجربة توضح ما أقول، في عام ١٩٤٥ –١٩٤٦ عندما سألني أستاذي عما سأدرسه في علم النفس، أخبرته فورًا لأن الموضوع كان متبلورًا في ذهني، لكنه كان متبلورًا كدافع شخصي. بعد خمس سنوات، وقف جيلفورد العالم الأمريكي الكبير ليلقي خطابه الرئاسي في جمعية علم النفس الأمريكية، وتحدث عن أنه سوف يكرس البقية الباقية من عمره في نشاطه مع تلامذته في بحث موضوع الإبداع لأن الأمة في خطر، وفي هذا الوقت كان السباق الحضاري العلمي الثقافي التكنولوجي على أشده بين الاتحاد السوفييتي وكل معسكره وبين الولايات المتحدة الأمريكية وكل معسكرها، وبالتالي لابد من البحث عن جذور لتنشيط العقل الأمريكي؛ حتى يستطيع أن يستمر في هذه المعركة. وكانت نظرته صائبة لأن الروس سبقوا الأمريكيين في أبحاث الفضاء وأطلقوا "سبوتنيك" في عام ١٩٥٨. وعندما كنت شابـــًا كنت أسعد بإنجاز أي بحث أيا كان، أما الآن وأنا في هذه المرحلة من العمر، فإنني أعيش الفكرة، بمعنى عندما تأتيني فكرة أسأل ما إذا كانت تستحق البحث فيها أم لا، ومن الممكن الإجابة على هذا السؤال من زوايا متعددة، وأظن أن الكثير يتعرضون لهذه المشاعر والخبرات مع تقدم العمر حيث تتولد محكات أخرى داخلية. وعندما فكرت تساءلت ما إذا كان كل ما فعلته يحمل من الجذور ما حملته حالة البروفيسور الأمريكي جيلفورد؟ وعند متابعة الأثر العملي لبحوث جيلفورد

وتلامذته سوف نجد أنه تم تطبيقها في توجيه الحياة العملية حيث التطبيقات العملية المفيدة سواء في الجانب العسكري أو في الجانب التكنولوجي العلمي الخالص وغير ذلك من المجالات. وعلى الرغم من تسليمي أنني ربما أكون قد أنجزت شيئًا جيدًا بحكم الكثيرين من المحيطين بي، لكن مازلت أفتقد جذورًا لأبحاثي داخل المجتمع المصري تشبه الجذور التي أقام عليها جيلفورد وتلامذته وآخرون. ولا أرى في مجتمعنا إلا أفرادًا يُنسب تفوقهم إلى أفراد آخرين، لكن لا يوجد ما يسمى تيارًا، وهذا هو ردي على عدد كبير من الأسئلة دار حول محور وجود مبدعين في مجتمعنا، ونحن لدينا مبدعون وتوجد مجتمعات نامية مثل المجتمع المصري تتميز بمبدعين كثيرين، مبدعين أفراد أما تيارات تغير وجه الحياة ومجرى الأحداث وتجعل الفعل الإنساني على مستوى جديد بناء على الابتكار الجديد فإن هذا لن يحدث أبدا. وهناك مسألة منهجية لابد أن نستوعبها، وهي إننا إذا كنا نريد أن نتحدث عن الظواهر السلوكية في مستوى الفرد، فإن هناك عمليات وآليات مختلفة إلى حد كبير عن العمليات والآليات الموجودة في حالة وجود تيار سرى حيث تسرى النار في الهشيم، ولو كان عالم كبير مثل الدكتور أحمد زويل استمر في مصر، لما حصل على جائزة نوبل، هذه مسألة مؤكدة ومفروغ منها، ليس فقط لنقص الإمكانيات، لكن لنقص التيار العام والمناخ الذي يساعده على العمل والإبداع. وبالتالي من يبدع في مصر فإنه يبدع رغم البيئة، ومن يبدع في الخارج فإنه يبدع بفضل البيئة.

وفي أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات بلغ منظمة الصحة العالمية أنني أقوم بدراسة عن المخدرات، فاتصلوا بي في مبادرة فريدة لم تتكرر معي مع أي مؤسسة من مؤسساتنا المصرية أو العربية، المهم أنهم اتصلوا بي وأبلغوني أنهم يهتمون بالدراسة التي أقوم بها وطلبوا تقريرًا مفصَّلاً لنشره في الدورية الخاصة بالمنظمة، وأرسلوا مندوبـــًا عنهم لتقصي ما يتم من أبحاث ودراسات وللتأكد من أن الموضوع جاد وحقيقي وليس وهمًا، ونشر التقرير، وبعد نشره في يوليو ١٩٦٧، تلقيت في عام ١٩٧٠ خطابا آخر من منظمة الصحة العالمية توضح لي فيه أنه سبق لي أن نشرت في الدورية الخاصة بالمنظمة وتسألني عن سبب عدم إرسالي أي دراسات تكميلية بعد التقرير الأول وما إذا كنت قد توقفت أم أنشر في دورية أخرى، فرددت عليهم موضحًا أنني لم أنشر في أية مطبوعة أخرى، ولكن لدي أسلوب في العمل وهو أن أتولى مسئولية مشروع كبير أدرسه في عامين أو ثلاثة ثم أنشره بعد ذلك على مراحل، وأنه حال استلامي خطابهم كنت قد بدأت لتوي في مرحلة تحليلات الدراسة. وقد استمرت بعد ذلك الخطابات مستفسرة عن العديد من الأفكار التي كانت مطروحة مما يوضح أنهم متابعون، حتى أنهم عرفوا أنني سوف أسافر إلى انجلترا لرؤية ابنتي فأرسلوا لي خطابـــًا يرجونني أن أمر عليهم في طريق سفري، على أن يتولوا إقامتي ومصروفاتي، وقد ذهبت إليهم والتقيت بهم للمرة الأولى وجها لوجه، وأبلغوني أنهم يعدون لاجتماع خبراء، وأنهم يرجونني تلبية دعوتهم، وقد

عُقد هذا الاجتماع بالفعل في ديسمبر ١٩٧٠، وبعد انتهاء الاجتماع وأنا في طريقي إلى المطار غادر معي المسئول عن مكتب الـــDrug Dependence في المنظمة تكريمـــًا لي، وأخبرني أنه هناك احتمال أن تضمني المنظمة إليها كخبير دائم في لجنة بحوث المخدرات، وسألني ما إذا كنت سأقبل، فأعربت له عن إحساسي بالشرف لهذا العرض، وبالفعل في مايو ١٩٧١ كان الجواب في وزارة الصحة يستأذن الحكومة المصرية أن يتم انتدابي لمنظمة الصحة العالمية، وقد ظللت على صلة بهم وظلوا يطلبونني ونحن نعمل معًا كهيئة وليس كأفراد. وقد وجدتني مثارًا للمزيد من الإبداع، وهذا هو المناخ الاجتماعي الأكاديمي الذي لا علاقة له بالواسطة ولا بالمحسوبية، وقد حدث ذات مرة أن قابلت البروفيسور هانـــز هالباخ – وهو أستاذ كبير في مجال الكيمياء، ويعمل في مجال الفارماكولوجي – فأرسل لي يبلغني أنه سوف يصدر مجلة وطلب مني أن أرسل له بحوثا مثل تلك التي أرسلها لدورية المنظمة فأكدت له موافقتي وغبت عنه عامـــًا ونصف ولم أرسل له شيئًا، ففوجئت بخطاب يأتيني منه، هذا هو المناخ، وهذه هي المحرضات الاجتماعية على الإبداع. لقد اجتهدت وتتلمذت تلمذة جادة لدراسة كيفية صياغة البحوث، ويعلم الله كم كنت أقرأ وكم كنت أتعب وأراجع وأبحث، فهم لم يصنعوني، ولكنهم نموني بحيث لاحظت أنني في وقت من الأوقات كانت كل كتاباتي باللغة الإنجليزية، وتُنشر في الخارج، وتوقفت عن النشر باللغة العربية، لأنني كلما أنشر في الخارج يأتيني مردودٌ يوحي بتنشيط جديد ويوحي بأفكار جديدة، فأعود أكتب لكي أرد، ثم بدأت أنقد ما أكتب. هذا هو الخيط الذي يربط أفكارًا كثيرة مما سمعناها، نحن لدينا مبدعون كثيرون. ومن ينسى شاعرًا كبيرًا مثل الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي أو الأستاذ حسن طلب، ومن ينسى في مجال القصة القصيرة الدكتور يوسف إدريس، وغيرهم الكثيرون. لكن أين المزاج العام للإبداع لدى المسئولين في الدوائر الأكاديمية ولدى المسئولين في الدوائر الاجتماعية السياسية؟ في الخارج يتهافتون على أي مبدع مهما كان، ولا يهتمون بكونه غريبـــًا فهم يستجلبونه ويبحثون وراءه، وعندما يجدونه على مستوى ممتاز فإنهم يتمسكون به أكثر وأكثر، ويبدءون في إغرائه بأن يترك بلده لينضم إليهم في بلادهم، وقد لمح لي بعضهم بلطف شديد وأدب جم حول هذا الموضوع، إلا أنني كنت قد قررت ألا أهاجر من بلدي أبدًا.

ولدي قصص كثيرة عن العروض التي تُقدَّم لشخصيات معينة في مجالات كثيرة في مصر ولا تلقى إلا التصغير والإهمال، لابد أن نكون واضحين، إن في مصر بحوثًا عن الإبداع منذ عام ١٩٤٥، وجيلفورد الذي يعتبر منشئ بحوث الإبداع في أوروبا وأمريكا بدأ في عام ١٩٥٠، ولا أقول إنني أفضل منه، لكنني لم أستقِ الفكرة منه. إن المزاج العام في مصر لا يرحب بالإبداع، وقد كتبت أربعة فصول في أحد كتبي عن "مصر الحاضر والمستقبل" عن المناخ الاجتماعي حول موضوع الإبداع

في أي منحى من مناحي الحياة، وليس الإبداع فقط في الرسائل العلمية وبحوث الترقية، وهذا هو مربط الفرس لندوتنا اليوم.

صلاح فضل:

لعل هذه الندوة المشبعة بالعلم والفكر والثقافة أن تكون إحدى الوسائل الفعالة لخلق المناخ المتقبل والمشجع والحافز للإبداع، نشكر الأستاذ الجليل الدكتور مصطفى سويف.